## طب نفسى

# العلاقات المصرية العربية: عبادة عجل من الورق الأخضر!

د. محمد شعلان

سيدة فى الخامسة والثلاثين من عمرها، متزوجة منذ عشر سنوات ولم تنجب طفلا حيا بعد، وإن كانت قد حملت مرارا دون أن يكتمل الحمل. سافرت مع زوجها للعمل فى بلد عربى شقيق «نفط مالى» منذ عدة سنوات. وهو بلد يتوافد عليه المصريون بكثرة من أجل العمل.

لقد حضرت فى عطلة الصيف لزيارة الأهل والأصدقاء علاوة على طلب العلاج. فإنها تعانى من قلق شديد مصحوب بإحساس عميق بالكآبة واليأس. إنها كثيرة البكاء، قليلة النوم، غير مقبلة على الطعام، تضطرب لأقل صوت. وهى تشكو من الوحدة. وتذهب بذاكرتها إلى السنين الطويلة التى قضتها فى الخارج. إذ منذ سفرها وابتعادها عن الأهل والأصدقاء وهى تعيش فى غربة. وهى وزوجها ليس لها اهتمام إلا بالعمل والعمل ليس له من هدف إلا الحصول على أجر سخى يدخران منه فى السنوات السمان استعدادا للسنوات العجاف بعد عودتهما إلى الأجر البخس. فهذا هو المقابل لذلك الحرمان من الدفء والحياة الاجتماعية اللتين كانا يتمتعان بها فى مصر.

كان بوسعهما أن يعوضا افتقادهما لذلك بواسطة إنشاء علاقات جديدة فى موطنهما المؤقت الجديد. فهو بلد عربى ومسلم والمفروض أننا جميعا إخوة عرب ومسلمون. وإذا كان الفرق بين العربى والأعجمى هو التقوى فقط، فما بال الأمر والمسألة ليس فيها أعجمى. كلانا العامل وصاحب العمل، عرب مسلمون. فالأحرى ألا يكون هناك فرق بيننا.

ولكن هنا فرقا، وهو فرق واضح وملموس بل صارخ. إنه يبلغ درجة الصفع أو البصق فى الوجه. هناك عربى مالك للمال والسلطة وعربى أجير ليس له فى المال إلا أجره ولا فى السلطة إلا خضوعه.

ومع ذلك فهما لم ييأسا بعد. فهذا البلد العربى به أبناء عاملة مصرية كثيرة. ولعلها من الممكن أن يجدا الأخوة فى تكوين علاقات مع المصريين هناك. فالأخوة إن كانت متعذرة بين العربى والمصرى بسبب وجود حاجز الملكية بينهما، فقد تتيسر بين المصرى والمصرى، فهما أخوان فى الفقر النسبى والخضوع النسبى. ولكن مساعيهما فى هذا الاتجاه قابلها عوائق أخرى. فالملاك عبر الزمان تعلموا حيلة أن يفرقوا بين الأجراء، فتمنعهم الفرقة من أن يصبحوا قوة بفضل الوحدة.

وبواسطة هذه الفرقة بينهم يتمكن المالك من إحكام السيطرة عليهم. وهو يغذى الفرقة بأن يخلق روح المنافسة بينهم. فقد يبث المنافسة بينهم بناء على درجة ولائهم للمالك ومدى استعدادهم للوشاية بإخوانهم ويتمكن بفضل تحكمه فى صنبور الذهب الأسود الذى يستبدل به ذهبا، من الورق المالى الأخضر ويطرح لهم به، فيعطى من يدين له بالولاء ويحرم من لا يدين.

والمالك يؤمن بعامة الشعوب العربية. وهو لا يجرؤ ولا غيره على مهاجمة شعب مصر. فهو يعلم أن شعب مصر هو مصدر قوته الاقتصادية الإنتاجية. فالمالك لا يملك إلا المال. أما العامل المصرى فهو يملك يده وعقله، ويملك القدرة على العمل والبناء والإنتاج، إنه يملك الحضارة. وفوق هذا فهو يملك القوة القاتلة التى تغيب عن الاغتيال فى الظلام أو اغتيال الأفراد. وشعب مصر يبدو هادئا وديعا. ولكنه إذا غضب فهو كمثل الحليم — لن يعرف ساعتها مالكا ولا مستعمرا.

المالك يسعى إلى إبقاء حالة الفرقة بين أبناء مصر فى الخارج. ويبدأ بأول درجة من التمييز حول من يدين له بالولاء ومن لا يدين. ونتيجة لذلك فقد أيقن الزوجان أن الأخوة التى كانا يبحثان عنها بين المصريين هناك غير متيسرة ولذلك اكتفيا بنفسيهما. لقد صار كل منهما المصدر الأساسى للصداقة والأخوة للآخر. الزوج يذهب إلى العمل ويعود إلى منزله ليبحث عن الدفء والحنان والراحة التى افتقدها طيلة النهار. ولكنه يجد أن زوجته بدورها قد عادت من عملها حيث افتقدت المحبة والأخوة لتبحث هى الأخرى عن التعويض فى المنزل. كلاهما جائع يطلب المعونة. ولكنهما يكتشفان أن كلا منهما كعبد المعين الذى جاءه صاحبه طالبا المعونة فوجده هو الآخر فى حاجة إليها. «جيتك يا عبد المعين تعينى لقيتك يا عبد المعين تتعان»!!

كانا قد أجلا العمل فى بداية زواجهما لأنهما وضعا أولوية لجمع المال من العمل فى هذا البلد العربى، ثم العودة به لشراء شقة وتجهيزها. ولهذا لم يكونا مستعدين للانشغال بتربية الأطفال.

ولكن الوحدة ومرور السنين جعلت هذا الطلب يلح. المرأة تشعر بأن وجودها ناقص بدون إنجاب. وتشعر بعدم الاستقرار لأنها تخشى أن زوجها سوف يبحث عن غيرها. فالزوج الذى يشقى ليجمع المال يريد أن يطمئن أن هناك أبناء له سوف يرثونه. إنه لا يريد لرجل آخر أن يرثه. بأن يتزوج هذا من أرملته إذا ما ترك هو الدنيا قبلها. كلاهما يريد طفلا والزوجة تجهر برغبتها التى هى أكثر إلحاحا. والرحم يستعد لاستقبال ذلك الكائن الجديد الذى يجمع بين خلية منها وخلية من زوجها. ولكن الضيف الجديد لا يأتى. فيلفظ الرحم باستعداداته. يسقط ذلك الجدار البشرى الذى بناه لكى يحتضن البويضة الملقحة ويأخذ معه بعض الدم الذى كان يتوافر فيه لتغذية الكائن الجديد.

إنها تحزن كل شهر مع رحمها. وقد يجلى الحزن بأمر من عقلها أن هذا ليس الوقت المناسب. ولكن الصبر يطول. والرحم يطلب

حقه في العمل وفي إتمام دوره ووظيفته . فيفرض منطقه على عقلها الذي يخضع ويقر برغبها أن تحمل ولكن الرحم ظل تعطيل وظيفته وتعود على الوحدة . ولعله كان في الأصل به عيوب تجعله غير قادر على أداء الوظيفة أداء كاملا . لعله كان صغيرا أو مقلوبا أو به غشاء يحوله إلى جزءين أو لعل القنوات الفالوبية التي تنقل البويضة ضيقة أو مسدودة . ولعل هناك اعتداء قد وقع عليه في وقت ما . كالاعتداء بالجراثيم أو الطفيليات . فأصابه بالالتهابات التي افقدته القدرة على أداء وظيفته . لقد جاء القرار بالحمل ولكن الاستعداد له قد فقد . هي تريد أن تحمل ولكن الرحم يعجز . تحمل فتجهض . وأحيانا لا تحمل أصلا .

ويدخل الطب الحوار . ويسعى إلى مصالحة الرحم مباشرة دون أن يعبأ بصاحبته أو بقرارها فالطب . وخاصة المتخصص منه ، يركز اهتمامه على أعضاء الجسد التي تخصه ويكاد لا يعبأ ببقية الأعضاء . ناهيك عن الإنسان صاحب هذه الأعضاء . ويظل الطب والمريض على ألا يتعدى الحوار مثل هذا المستوى العضوي . وعلى هذا الأساس تستمر صاحبة الرحم في وضع آمالها وآلامها في رحمها . انها تتصور أنها شقية لأنها لم تنجب وأنها سوف تسعد إذا أنجبت وأن إنقاذها في يد الطبيب . وكلاهما ينسى أن هناك مشكلة أخرى وراء مشكلة الرحم . وأن المشكلة ليست مجرد مشكلة رحم .

ويستمر الأمل . ويزداد كلما تأخرت الدورة الشهرية أياما . ثم يختنق الأمل فجأة ويحل محله ألم مضاعف نتيجة خيبة الأمل .

وتغمر الدموع الساحة كلها . ولم يعد البكاء بكاء رحم . بل بكاء إنسانة . وتتضح أبعاد المشكلة وتشعباتها .

لقد عانت من الوحدة مع زوجها . حينما تركت بيت الأهل ، حيث نشأت بين أبويها وإخوتها . إلى بيت الإنجاب ، حيث الاستعداد لتكوين أسرة جديدة ، انتقلت من مرحلة الشباب إلى مرحلة الرشد . حيث تواجه تحدى التخلى عن هويتها التي كانت أسرها قد أكدتها في مواجهة أسرتها ، لكي تشترك مع آخر مع جنس مخالف . في تكوين كيان جماعي جديد .

كانت في صباها مجرد امتداد مطيع للأسرة فثارت في شبابها لتقول : أنا لست ما أمل على — في طابعي الخاص وتاريخي وطموحي . . في هوية مستقلة . ذهبت إلى الزوج لتتنازل عن هذا المكسب الذي حققته لتقول : إن ما كان خاصا في أعطيه لك يا شريك حياتي . وبالطبع آخذ منك في المقابل ما هو خاص بك . إننا نشترك في تكوين كيان جديد .

كانت هذه النقلة من أسرة الأهل إلى أسرة الإنجاب هي النقلة من حال تعودت عليه إلى حال جديد . وبالقدر الذي لم تعد له فإن النقلة تكتسب طابع الصدمة . وتتسم بالحزن لفقدان شيء قديم . لقد فقدت أسرة الأهل وشعرت بالوحدة مع زوجها بالإضافة إلى الشعور المتوقع وهو الشعور بالمشاركة وتجاوز الوحدة والعزلة .

ثم اكتشفت أن أسرة الإنجاب أمامها خطوات أخرى قبل أن تصبح منجبة فعلا . فالإنجاب يتطلب مسكنا ومصدرا للرزق يتعدى احتياجاتها الذاتية . مطلوب فائض من إنتاجها يذهب لرعاية الأبناء . والإنتاج الحالي ، بأجور كانت بالكاد تصلح منذ عشرين عاما ، أصبحت اليوم تساوى في قوتها الشرائية أقل من عشر قيمتها المطلوب لكي يكون دخلها كما هو مقدر نظريا ، عشرة أضعاف حجمه الحالي . ولعل هذا الدخل يتوافر في الدول العربية « النفطية » . فليرحلا للإنجاب إذن حتى يوفرا الفائض اللازم ويزداد الخير حينما يكتشفان أن العزلة الاجتماعية حيث يعملان في هذه الدولة العربية ، لا تشجع على الإنجاب . فلا توجد جدة أو عمة أو خالة ، بل بالكاد توجد مربية ، تستطيع أن توفر الرعاية للطفل .

وهكذا تلقت أول صدمة ، وهى الانتقال من أسرة الأصل إلى أسرة الإنجاب صدمة ثانية وهى الانتقال من المجتمع الذى نشأ فيه إلى مجتمع آخر بلا أقارب ولا أصدقاء .

ثم جاءت الصدمة التالية بأن اكتشفا أن العروبة والإسلام يختفيان حينما تظهر المنافسة على ملكية المال أو السلطة بل إن الانتماء المصرى يختفى هو أيضا عند هذه الحالة . ولماذا نذهب بعيدا : ففى صراع السلطة والمال نجد الأخ يقتل أخاه أو قد ينتحر إذا ما تخلى عنه أخوه .

كانت مواساتها أنهما يذهبان لبناء جزء من أمتهما . ولكنهما اكتشفا أنهما كالأجراء يعملان عند صاحب ملك . ولاؤه الأول لماله الأسود ، بل للمال الأخضر الذى يطبع ويخزن في بنوك العالم الغربي . إنه لا يبنى أمة ولا حتى يبنى وطنا . كل ما يفعله أن يستورد حضارة جاهزة بكل معداتها التكنولوجية ويزرعها في الصحراء . إنه يستورد الآلة . ولكنه لا يستورد القدرة على صنعها . بل صيانتها بل حتى تشغيلها ويزداد ولاؤه بالضرورة لذلك العالم الغربي الغريب . وكذلك اعتماده عليه . أما أبناء الوطن أو أبناء الأمة العربية فليس لهم إلا أن يخدروا بواسطة هذه الرفاهية التى أصبحوا يتعلقون بها كالمدمنين حتى إذا ما انسحبت منهم لسبب أو لآخر ، لعل أوضحه أن البترول ذاته سوف يجف وينضب — فإنهم عندئذ سوف يصرخون ويتشنجون ، فقد تعودوا ألا ينتجوا بل يستهلكوا . وتعودوا أن يعملوا كالأجراء بلا ولاء . فإذا انخفض الأجر أو انقطع توقفوا عن العمل .

لقد انقشع حلم القومية العربية ولاح حلم الأمة الإسلامية في الأفق كبديل يشعل حماسه وإيمانه . ولكن هذا الحلم أيضا يتقشع رويدا رويدا . فهذه بلاد الكعبة المقدسة وبلاد الجماهيرية وبلاد الإمامة الشيعية ترفع كلها الشعارات الإسلامية . لا للتعارف ولكن للتقاتل والتخاصم . والمسألة ليست في حاجة إلى وعى سياسى . فيكفيه أن يرى أن صاحب الملك المسلم لا يأخذ من الإسلام إلا ما يبيح له استغلاله ومص دمائه ! وإنه يأخذ بالمظهر ويلبس الملابس الإسلامية ويطلق لحيته ويمتنع عن الإفطار جهارا نهارا ، بل يصدر التشريعات لمعاقبة المفطر جهارا نهارا ، والتشريعات التى تمنع الاتجار والتعاطى للمشروبات الروحية حتى إذا ما عاد إلى منزله المستورد المكيف والمفتوحة نوافذه لا على مآسى إخوانه المسلمين في جميع أنحاء العالم ، بل على الملذات الحسية التى يصدرها له الغرب بواسطة تكنولوجيا الفيديو والإرسال اللاسلكى . وهناك يستمتع بتعاطى المسكر ويغرق في الملذات الحسية ، مستوردا الجوارى والغوانى . إنه يتعامى عن آلام المسلمين والعرب في كل مكان . فإذا ما كان صراخهم عاليا ذهب بجواريه ليشيد القصور في جبال سويسرا أو غيرها حيث يذهب اللصوص بأموالهم . فهناك اتفاق بين لصوص العالم أن يكون هناك بلد محايد يحمى كل هارب بغنيمته من بلده ، ولا تمتد له يد لص آخر أو شرطي .

هكذا وجدا أنهما يعملان بلا هدف ، وبلا أيديولوجية تلزمهما حماسة ، بل بلا أسطورة . إنهما يعملان من أجل المال . ولاؤهما للمال . ورب البيت — صاحب المال — هو أيضاً ولاؤه للمال . والمال في بنوك الغرب يستثمر لصالح الغرب — بل يستثمر في إسرائيل قبل أن يستثمر في أية دولة عربية . وما دام صاحب البلد العربي ولاؤه للمال العربي ، فلا يعيب العامل المصرى أن يكون ولاؤه هو الآخر لذات المال . وينسى العروبة وينسى الإسلام بل ينسى مصر . وأخيرا ينسى أسرته وبيته .

ثم الزوج يذهب إلى عمله ليجنى المال ولا يريد أن يستمع إلى هموم زوجته . والزوجة في وحدتها تريد أن تشغل نفسها . بطفل يملأ حياتها . فيصفعها رحمها ويرفض . فتواجه مشكلتها الحقيقية قبل الأوان . إن زميلاتها اللاتي أنجبن قد أجلن هذه المواجهة . واكتفين بتخدير الانشغال بالأولاد والأسرة والمنزل . ولكنها واجهت المشكلة من جذورها في وقت مبكر . إنها تتساءل : ماذا أعيش ؟ لمن أعيش ؟ هل استمر كزوجى الأبله مجرد عبدة للأجرة التى اقتاضاها في نهاية كل شهر ، بل لماذا يعيش هذا الأبله ؟ ولمن يجمع هذا المال ؟ لا توجد قضية تلهب مشاعره . ولا عقيدة تجعله يتحمل عذاب الدنيا في سبيل تعويضه في الآخرة . كل ما تبقى له من الإسلام هو ذلك الأداء الآلى للفروض . إنه يصلى كالآلة . ويحج كالآلة ويزكى كالآلة . والشهادتان على لسانه صوت بلا معنى . فهو لا يؤمن في أعماقه بهدف الحياة . ولا يعلم مدى آلام إخوانه المسلمين في العالم أجمع . إنه لا يعمل لكي يبنى عالما أفضل لهم . ولكنه يعمل ليتقاضى أجرا . لم يعد في حياته غير هذا الورق الأخضر . وهو ورق تنخفض قيمته يوما بعد يوم .

لعله يحلم بالعودة إلى مصر . وأنه سوف يبنى هناك للأجيال القادمة . ولكن هيهات أنه يحلم . فقد نسى أننا خرجنا من مصر أصلا سعيا وراء الورق الأخضر . وعلى كل فهو يدرك أنه يحلم ، وهذا الأمل ليس إلا مجرد أمل لفظى . ففى أعماق نفسه يعرف أن ولاءه في الأصل كان إلى حد كبير للورق الأخضر . ولم يتغير شيء بعد رحلته هذه ، إلا إذا ازداد ذلك الولاء للورق الأخضر . فقد تأكد أنه لو نادى بغير ذلك لصار وحيدا مجنونا . فالكل يدين للورق الأخضر . أما شعارات الدين والقومية ، فهى تطلق فقط لتأكيد الولاء للورق الأخضر وليس لتحطيمه . فالولاء للدين والوطن ليس إلا ولاء لفظيا . والولاء الحقيقى هو للورق الأخضر .

لقد هجر بنو إسرائيل نبيهم وعبدوا العجل الذهبى . أما العرب فقد عبدوا عجلا من الورق الأخضر يسبح فوق بحيرة من النفط الأسود . وفى قلب بلادهم فى المنطقة التى يحتدم الصراع والحوار بين الأيادى العاملة الحالمة والواقعة بين وادى النيل ووادى الأردن . أباد لم يشفع لها إسلام ولا نصرانية ولا يهودية فنالت جميعها جفاف نضوب النفط . فتحولت بالتالى إلى فتيل لا ينقصه إلا شرارة ليحرق النفط وما يطفو على سطحه من ورق أخضر . □